فريق التفريغ بموقع الطريق إلى الله

يـــقـــدم

من سلسلة "دورة شرح الأربعين النووية"

الحديث الرابع

لفضيلة الشيخ: هاني حلمي

رابـط الـمـادة: http://www.way2allah.com/khotab-item-68130.htm

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله وكفى وصلى الله وسلم على النبي المصطفى، وآله المستكملين الشرف، ثم أما بعد:

فأسأل الله تبارك وتعالى أن يعلمنا ما ينفعنا، وأن ينفعنا بما علمنا وأن يزيدنا علمًا ينفعنا، ربِّ نعوذ بك من علم لا ينفع، ومن نفس لا تشبع، ومن قلب لا يخشع، ومن دعوة لا يستجاب لها، ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشدًا.

الحديث الرابع: الحديث العظيم الجامع، الأعمال بخواتيمها

روى البخاري ومسلم من حديث أبي عبد الرحمن عبد الله بن مسعود –رضي الله عنه– قال: حدَّثَنا رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وهو الصَّادق المَصْدوق: "إن أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ في بَطْنِ أُمِّه أرْبعينَ يوْمًا نُطْفَةً، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذلك، ثُمَّ يَكُون مُضْغَةً مِثْلَ ذلك، ثُمَّ يُرْسَلُ إليه المَلكُ فَيَنْفخُ فيه الرُّوحَ ويُؤمَرُ بأرْبَعِ كلماتٍ: بِكَتْبِ رِزْقِهِ وأَجَلِهِ وعَمَلِهِ وشَقيٌّ أو سَعيدٌ، فَوَالَّذي لا إله غَيْرُهُ إنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بعَمَلِ أهْلِ الجَنَّةِ حتى ما يكُون بَيْنَهُ وبَيْنَها إلا ذِرَاعٌ، فَيَسْبقُ عَلَيْه الكِتابُ فَيَعْمَلُ بعَمل أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُها. وإنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهل النَّارِ حتى ما يَكُون بَيْنَهُ وبَيْنَها إلا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكتابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أهل الجنَّةِ فَيَدْخُلُها " هذا الحديث رواه الإمام البخاري في كتاب بدء الخلق باب ذكر الملائكة، ورواه الإمام مسلم في صحيحه في أول كتاب القدر باب كيفية خلق الآدمي، ورواه أبو داود في السنة في باب القدر، والترمذي في القدر كذلك، وابن ماجة في المقدمة باب القدر، وهو حديث عظيم جامع لأحوال الإنسان، من أول مبدأ حياته ومجيئه وخلقه إلى آخر أحواله من الخلود في دار السعادة أو دار الشقاوة، بما كان منه في الحياة الدنيا من كسب وعمل، وفق ما سبق في علم الله فقدَّره وقضاه.

المؤمن صادق لا يكذب

هذا الحديث رواه ابن مسعود رضي الله عنه، وحينما روى الحديث قال حدثنا رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وهو الصادق المصدوق، أما الصادق: فهو الصادق في جميع ما يقول؛ إذ ما يقول هو الحق الصدق المطابق للواقع، وهذا من أسمائه –صلى الله عليه وسلم–، المصدوق: فيما يوحَى إليه لأن الملك جبريل يأتيه بالصدق، ولما وصف الله تبارك وتعالى أبا بكر –رضي الله عنه– قال: " وَالَّذِي جَاء بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ" الزمر : ٣٣ ، قالوا:

الذي جاء بالصدق النبي –صلى الله عليه وسلم– وقالوا: الذي صدَّق به أبو بكر، فصفة الصدق من أعظم الصفات التي يتحلى بها العبد المؤمن، والمؤمن لا يكذب، وكل من كان فاهمًا عالمًا لمعنى كونه ابنًا للنبي محمد –فالنبي أبٌ لنا ونحن أبناؤه صلى الله عليه وسلم– ينبغي عليه أن يكون صادقًا في جميع حاله.

أقسام الصدق:

والصدق يقسم إلى ثلاثة أقسام: صدق في الأقوال، وصدق في الأحوال، وصدق في الأعمال.

- صدق في الأقوال: وهذا هو الصدق المعلوم المعروف، أي أنك تتكلم كلامًا مطابقًا للواقع، فمثلاً أنت تحكي ما رأيت أو فعلت كما وقع بالضبط، فيطابق القول الواقع.
- صدق في الأحوال: وهي مطابقة ما في القلوب لما في الظاهر والواقع، أي صدق ما في القلوب، وليس على صفة النفاق كما قلنا بالأمس "يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ" آل عمران: ١٦٧، أ ي أن حال قلبه موافقٌ لقوله وعمله، فكل ما في قلبه مطابقٌ لما يظهر على لسانه وجوارحه.
- صدق في الأعمال: أي الصدق في أعمال الجوارح كلها.

معاني ألفاظ الحديث:

قال: حدثنا الصادق المصدوق :"إن أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ" أي: يُضم ويُحفظ، أو يُقدَّر ويُجمع، "خَلْقُهُ": أي مادة خلقه، وهو الماء الذي يُخلق منه "وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ" الأنبياء: ٣٠، والإنسان من ماء، خُلق آدم عليه السلام من طين "ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاء مَّهِينٍ" السجدة: ٨، أي ماء الرجل وماء المرأة الذي يخرج من بين الصلب والترائب، فإذا ما لُقحت البويضة بماء الرجل، واستقرت في قرار مكين، أي في رحم المرأة كما سماه القرآن "فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ" المرسلات: ٢١، " إن أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ في بَطْنِ أُمِّه" أي يجمع في رحمها في القرار المكين.

"إن أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ في بَطْنِ أُمِّه أرْبعينَ يوْمًا نُطْفَةً" أصل النطفة الماء الصافي والمراد هنا المَني، يمكث نطفة هكذا أربعين يومًا، "ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذلك"، العلقة قطعة دم لم تتيبس أي لم تتجمد، فقطعة الدم مالم تتيبس تسمى علقة؛ لعلوقها بيد الممسك بها، تكون دمًا لزجًا إذا أمسك به الإنسان تعلق به فسمى علقة، ، ثم "ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذلك" المضغة هي قطعة اللحم بقدر ماتمضغ، هذا الطور من خلق الإنسان أشبه ما يكون بقطعة لحم قد مضغت.

"ثُمَّ يُرْسَلُ إليه المَلكُ فَيَنْفخُ فيه الرُّوحَ ويُؤمَرُ بأرْبَعِ كلماتٍ... إلى آخر الحديث إلى أن قال: "فَيَسْبقُ عَليْه الكِتابُ" أي الذي سبق في علم الله تعالى في اللوح المحفوظ، أو الذي سبق في بطن الأم سواءً كتب شقيًا أو كتب سعيدًا.

هذه هي الألفاظ الغريبة الواردة في الحديث، أما التالي فهو فقه الحديث وما يرشد إليه، وهذا فيه من الفوائد الشيء الكثير الكثير.

فقه الحديث وفوائده:

الفائدة الأولى: أطوار الجنين وحكمة الرب في هذا التدرج

ذكر هذا الحديث أطوار الجنين في الرحم، وسنستفيد منه كلامًا فقهيًا مهمًا جدًا في مسألة إسقاط الجنين ومتى يصير قتلاً، ومتى لا يصير كذلك.

يدل هذا الحديث على أن الجنين يتقلب خلال مائة وعشرين يومًا في ثلاثة أطوار؛ في كل أربعين يومًا منها يكون في طور، فيكون في الأربعين الأولى نطفةً، وفي الأربعين الثانية علقةً، وفي الأربعين الثالثة مضغةً، ثم بعد المائة والعشرين أي بعد أربعة أشهرٍ ينفخ فيه الروح، ويُكتب له في هذا الوقت أربع كلمات: يُكتب له رزقه، وأجله، وعمله، ومصيره شقيٌ أو سعيدٌ، وقد ذكر الله تبارك وتعالى في كتابه العزيز تقلب الجنين في هذه الأطوار فقال الله جل وعلا في سورة الحج: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ" الحج:٥ من تراب يعني خلق آدم –عليه السلام–.

وفي سورة المؤمنون قال الله جل وعلا :"وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ" المؤمنون ١٢:١٤، هذه الآية ذكر الله فيها الأطوار الأربعة الواردة في هذا الحديث، وزاد عليها ثلاثة أطوار، فأصبحوا سبع مراحل، لذلك كان ابن عباس يقول: "خَلْقُ ابن آدم من سبع" ماهي هذه السبع؟! نبدأ بالتراب، خُلق من سلالة من طين، ثم النطفة، ثم العلقة، ثم المضغة، ثم العظام، ثم يُكسي هذه العظام لحمًا، ثم يُنشأ نشأة أخرى، فهذه سبع مراحل.

لماذا خلق الإنسان على مراحل؟ وما حكمة الله عز وجل في ذلك؟

أولاً: الحكمة في خلق الإنسان بهذا الترتيب ووفق هذا التطور من حال إلى حال هو انتظام خلق الإنسان مع خلق الكون، الله قادر على كل شيء "وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا" الكهف:٤٥، فكأن الله تبارك وتعالى جعل من سنن الكون أمر التدرج، فعلمنا هذا التدرج في خلق السماوات والأرض، وفي خلق الإنسان "وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ" الذاريات:٢١.

ثانيًا: حكمته في التدرج يعلم الله من خلال هذا بني آدم التأني لأن الإنسان خُلق من عجل "وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا" الإسراء:١١، فالله يأمرنا بالتريث والتمهل والتأني والصبر والاصطبار مخالفةً لما خُلق فينا من إرادة التعجل، فهو خلق الخلق كذلك، وخلقك أنت كذلك، لابد أن تمر بهذه المراحل على مدى تسعة أشهر لتخرج جنينًا بعد أن مرت بك تلك المراحل كلها، وفيه إعلام الإنسان بأن حصول الكمال المعنوي له إنما يكون أيضًا بالتدرج، سبحان الله!

انظروا إلى هذه الفائدة.. فقد قلنا سابقًا في حديث جبريل إسلامٌ، ثم إيمانٌ، ثم إحسانٌ، إذن لابد من هذا التدرج، يعني لابد أن تحقق الإسلام ثم الإيمان ثم الإحسان، هكذا خلقت تدريجيًا نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، كذلك لابد

أن تكون متدرجًا في طريقك إلى الله، لا تقفز بل خذ خطواتك بهرولة، لكن لا تتعجل وتقفز إلى مقام سابق لمقامك؛ حتى لا تجد نفسك كأن تطير في الهواء بلا أعمدة ثابتة، نعنى أنه لابد أن تتعلم أولاً ثم تعمل بما تعلمت ثم تدعو إلى الله عزوجل، وهكذا سائر أمرك لابد فيه من التدرج.

إذن أخذنا الفائدة الأولى وهي أطوار الجنين وحكمة الرب في هذا التدرج في الخلق، أخذنا منها خلق الإنسان هكذا، وخلق الكون هكذا، واستفدنا منها فائدةً إيمانيةً وهي التأني، وكان النبي –صلى الله عليه وسلم– يقول: "التَّؤُدَةُ فِي كُلّ شيء خَيْرٌ إِلا فِي عَمَلِ الآخِرَةِ" صححه الألباني، أي الزم التأني في كل شيء إلا في أمر الآخرة ارفع فيه شعار "وعجلت إليك رب لترضى" إذن تهرول وتسرع إلى الله، لكن تنتبه إلى طريقك، وكيف ستسير وتتدرَّج، ولا تقفز قفزات ربما تؤدي بك إلى بعض الشطحات.

الفائدة الثانية: ما علاقة مدة نفخ الروح بعِدة المتوفَى زوجها والمطلقة؟

اتفق العلماء على أن نفخ الروح في الجنين يكون بعد أربعة أشهر يعني مائة وعشرون يومًا وذلك تمام أربعة أشهر، وهذا موجود ومعلوم بالمشاهدة، ومن هنا كانت الحكمة في أن عدة المرأة المتوفى عنها زوجها أربعة أشهر وعشرًا؛ لتتحقق براءة الرحم ببلوغ هذه المدة دون ظهور أثر الحمل، سؤال: لماذا عدة المطلقة دون هذا؟ لأن في حالة المتوفى زوجها فإن الزوج غائب ولا نستطيع التثبت منه بأن هذا الحمل منه هو فننتظر العدة هذه، أما المطلقة فالرجل موجود يمكنه أن يثبت أو ينفي وجود علاقة زوجية بينهما، قالوا لذلك عدة المُتوفى عنها زوجها أربعة أشهر وعشرًا لكي يتأكدوا مئة بالمئة أنه لا أثر للحمل.

الفائدة الثالثة: حكم إذا أسقط الجنين بعد مرور أربعة أشهر

ماهي الروح؟ وما نفخ الروح؟ بعض أهل العلم قال: لافرق بين الروح والنفس، والصحيح التفرقة بينهما، الله عز وجل قال: "وَيَسْأَلونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً" الإسراء: ٨٥، بعض أهل العلم يقولون: هي شيء لطيف، يسير في البدن، مشتبك بأعضاء البدن، بزواله تزول الحياة؛ أي أن الروح هي ذلك الشيء اللطيف الذي لا نعرف ماهيته، لو وُجد في الجسد دبت فيه الحياة، ولو نزع منه زالت حياة ذلك الجسد.

إذن نفخ الروح يكون بعد أربعة أشهرٍ؛ وبناءً على ذلك اتفق العلماء على تحريم إسقاط الجنين بعد أربعة أشهرٍ، وتعتبر جريمة لا يحل للمسلم أن يفعلها لأن هذه جناية على حيٍّ متكاملِ الخلق، ورغم أنه لم يصل لمرحلة التكوين النهائي، لكن وضعت فيه الروح فصار كائنًا حيًّا، وإذا أسقط تجب فيه الدِّيَة إن نزل حيًّا ثم مات، وتجب عقوبة مالية أقل منها إن نزل ميتًا..

هذا حكم لو أُسْقِط بعد أربع شهور، مهما كانت علل وأسباب الإجهاض سواءً كان بطلب الزوج، أو خوفًا من الرزق، أو ماشابه ذلك فلا يجوز الإجهاض، ولا يجوز الإجهاض إلا بوصفة طبية مسلمة ماهرة ثقة تقول بأن وجود هذا الجنين يضر بهذه المرأة ضررًا بالغًا؛ فحينئذٍ نقول الضرر يزال والضرورة تبيح، لكن لا يجوز لأي سبب آخر؛

كأن تدَّعي أن صحتها ضعيفة، أو أنها مريضة بالسكر مثلاً؛ وتخشى إصابة الجنين به، أو تخشى إصابته بتشوهات فمثل هذه الادعاءات لا عبرة لها في الشرع.

حكم الإجهاض قبل أربعة أشهر

ماذا لو أُسْقِط الجنين قبل نفخ الروح؟ ما الحكم؟ الحكم أنه حرام، وإلى ذلك ذهب أغلب الفقهاء؛ والدليل على ذلك من حديث حذيفة ابن أُسيد الغفاري أن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال:"إذا مَرَّ بالنطفة اثنتان وأربعون ليلة، بعث الله إليها ملكًا فصورها، وخلق سمعها وبصرها، وجلدها ولحمها وعظامها" صححه الألباني، مر عليها اثنتان وأربعون ليلة أي في الأسبوع السادس فما فوق، بعث الله ملكًا فصورها، وخلق سمعها وبصرها، وجلدها ولحمها وعظامها أي أن الملك شكَّل هذه النطفة، حتى وإن لم يظهر لنا بالصورة التي ينتهي إليها عادةً خلق الإنسان، لكنه يكون بالفعل خُلِّق، أي تم تخليقه، فلذلك يَحرم إسقاطه لأنه صار مُخَلَّقًا، هذه المرحلة ما دون نفخ الروح لكن الجنين يكون قد شُكِّل، ويظهر لنا هذا التشكيل شيئًا فشيئًا مع نمو الجنين، يقول ابن رجب: أن بعض أهل العلم رخص في إسقاط ما في بطن الأم ما دون الأربع أشهر وجعلوه كالعزل، وهذا قولٌ ضعيفٌ.

ما هو العزل؟ العزل أن يجامع الرجل زوجه ولكن لا يكون القذف داخل الرحم وإنما يكون خارج الرحم، فهذا يسمى عزلاً، وكانوا يصنعونه حتى لا تنجب المرأة، يعني أقرب ما يكون لموانع الحمل الحالية، قال الصحابة: كنا نعزل والقرآن ينزل فما نهينا عن ذلك، فيقولون أن الإسقاط قبل نفخ الروح حكمه مثل حكم العزل لأن كلاهما يقصد عدم الإنجاب، لكن هذا قولٌ ضعيفٌ، لأن الجنين رغم أن الروح لم تنفخ فيه بعد إلا أنه انعقد وربما تصور وتخلَّق بخلاف العزل، فالعزل لم يحدث حمل ولا تخليق أصلاً؛ فماء الرجل خارج الرحم، إنما في الحالة الأولى ماء الرجل داخل الرحم ولقحت البويضة، فهناك فرق ما بين الحالتين.

وعلى ذلك الصحيح في هذه المسألة أن الإجهاض بشكل عام حرامٌ، يزداد حرمةً بعد أربعة أشهر، ويجوز رخصةً في ضرورات خاصة، ولذلك يعتبر الطبيب الذي يجهض المرأة بعد أربعة أشهر متسبب في جناية؛ وبالتالي عليه وزرٌ عظيم، وقد تكون عليه الدية فالمسألة ليست بالهيِّنة.

الفائدة الرابعة: ما الفرق بين صفة الذات وصفة الفعل لله رب العالمين؟

نأتي للفائدة الرابعة وهي عِلم الله، فمن أسماء الله العليم، ومن مراتب القدر أنه سبحانه وتعالى له العلم الكامل الشامل المحيط، فالله تبارك وتعالى يعلم ما كان، وما سيكون، وما هو كائن، وما لم يكن لو كان كيف كان، والله تبارك وتعالى يعلم شقيٌ هذا الإنسان أم سعيد، وهنا وقع الإشكال في فهم مسائل القضاء والقدر، كيف يعلم ثم بعد ذلك يخلق؟! أو ليس كل إنسان منا في نهاية الأمر مكتوب أجله؟! هنا في الحديث يكتب أجله، ورزقه، وعمله، وشقي أو سعيد، قلت لكم أن مسائل القضاء والقدر لن تفهمها إلا إذا عرفت مَن هو الله عندها سيختلف الأمر. فالله تبارك وتعالى هو العليم، فهل صفة العلم هي صفة ذات أم صفة فعل؟ وما الفرق بينهما؟

صفة الذات: صفة لاتتبدل، ولاتتغير، ولاتتحول، ولا تتخلف، يعني الله عليمٌ، كان عليمًا وهو الآن عليمٌ وغدًا عليمٌ وهو في كل وقت عليم. أما صفة الفعل: فهي متعلقة بالمشيئة متى شاء صنع، مثلاً في الثلث الأخير من الليل ينزل ربنا فهو ينزل وقتما شاء، يضحك متى شاء، فعلى ذلك صفة الذات لا تتخلف أبدًا مثل القدرة فهل يعجز ربنا؟! معاذ الله، ومثل السمع والبصر؛ هل لا يسمع ربنا في وقت؟ هل لا يبصر ربنا في وقت؟ سبحانه وتعالى حاشاه، ومنها العلم هل يجهل ربنا شيئًا؟ أعوذ بالله، إذن صفة العلم صفة ثابتة لله.

الرد على شبهة النصارى حول ألوهية عيسى عليه السلام

نأخذ من هذا ردًا على شبهات النصارى، هم يقولون في بعض مذاهبهم –وتعلمون أنهم منقسمون إلى أرثوزوكس وبروتستانت وكاثوليك– أن طبيعة المسيح طبيعة ألوهية، أي ثالث ثلاثة أو هو الله، فإن كان ابن الله قالوا كانت له طبيعتان: طبيعة يسموها طبيعة ناسوتية يعني بشرية، وطبيعة لاهوتية يعني طبيعة إلهية، كأنه منقسم نصفين؛ نصف بشري ونصف إلهي، فإذن ينبغي أن يكون النصف الإلهي عليم قدير، والسؤال هل هذا النصف الإلهي لم يكن يعلم أن النصف البشري سيُصلب؟! لو قالوا أنه لم يكن يعلم فإذن هو ليس بإله، ولو قالوا أنه كان يعلم فإذن هو خائن للنصف البشري، وهذا دليل على أنهم يضعون كلامًا لا يقبله العقل، إذن هو ليس ابن الإله ولا الإله، ولا فيه جزء من الألوهية، لأنه لو كان به شيئًا من الألوهية فسيكون قديرًا وعليمًا، وإن كان كما يزعمون فهل يوجد رب يتصلب،؟! رب عاجز؟ رب لا يعلم ما سيحدث له؟ فإذن هو بشر.

الفائدة الخامسة: هل عِلم الله يرفع عن الناس الاختيار؟

علم الله –تبارك وتعالى– علمٌ كاملٌ، شاملٌ –سبحانه وتعالى–، هل علم الله يرفع عن العبد الاختيار؟ إن أجبت عن هذا السؤال فنكون قد أنهينا مسألة القضاء والقدر، مثلاً الواحد منا بإرادته يأتي لهذه الدورة أو لايأتي، يصلي في المسجد هذا أو لا يصلي، ينام الآن أو لا ينام، فهذا اختياره لم يغصب عليه أحد، فهل علم الله يجبرك على شيء؟! هل أنت اطلعت على علم الله أصلاً؟.

يأتي أحدهم ويقول: أشعر أن ربي سيدخلني النار فمثلي لا يَرِد على جنة، فتسأله لماذا تقول هذا؟ فيقول: ألم ترَ المعاصي التي أقترفها؟ فنرد عليه بهذا الحديث؛ فهنا يقول النبي –صلى الله عليه وسلم– "إن الرجل يعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها غير باع أو ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة، حتى ما يكون بينه وبينها غير ذراع أو ذراعين، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها" صحيح البخاري

أن الرجل يعمل بعمل أهل النار، ويظن الناس أنه سيرد النار، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة، وعلى الجانب الآخر هذا في أعين الناس يرونه ملتزمًا ومن أهل القرآن ويحسبونه من أهل الجنة ثم يُفتن؛ فيسبق عليه الكتاب فيكون من أهل النار، مثل بِلْعام بن باعوراء الذي كان يعرف اسم الله الأعظم ثم فتن وكان يأتي البهائم، فخلاصة الأمر وأبلغ رد على هذا الموضوع أنك لا تعرف المكتوب في اللوح المحفوظ، فلماذا تقول أنك إلى النار

أو إلى الجنة؟ ما أدراك؟ إذن علم الله لاينفي الاختيار والقصد، مثلاً إذا نودي للصلاة حيَّ على الصلاة، فأنا أستطيع أن أصلي أو لا، لذلك نقول علم الله لايرفع عن العبد الاختيار.

لا يُحتج بالقدر في معصية الله عز وجل

والقصد من فوائد هذا الحديث الاحتجاج بالقدر، ماذا نعني بمسألة الاحتجاج بالقدر؟ كمن تأتيه تنصحه بالالتزام وفعل الطاعات، فيقول: ربنا خلقني هكذا، ماذا أفعل؟ هذا قدري أن يكون أبي رجلاً غير صالح، وبيتنا ليس كبيوت الصالحين، ونشأت في بيئة سيئة، فيحتج بذلك على المعاصي، وعادة الإنسان لا يحتج بالقدر على الطاعات فابن آدم جحود؛ إن رأيته صاحب همة وملتزمًا ينسب الخير والفضل لنفسه، وفي المعاصي يحتج بالقدر والظروف وأنه بشر، قال الله: "مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا" النساء:١٤٧

وقال الله: "وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ "الزمر٧، إذن ربنا أمرنا بطاعات ونهانا عن معاصٍ، وماكلفنا شيئًا لايستطاع، وما قدره الله لنا أو علينا مجهول؛ فلايحتج صاحب معصية أو ضلالة أو كفر بالقدر.

متى يصح أن تحتج بالقدر؟ يصح ذلك بعد حصول القدر، لماذا فعلت ذلك؟ فتقول: قدَّر الله وما شاء فعل، لماذا تأخرت؟ ألم أقل لك اضبط المنبه واستيقظ مبكرًا؟ تقول: قدَّر الله وماشاء فعل، هنا يصح أن تحتج بالقدر لأنك أخذت بالأسباب ثم أراد الله ما أراد، لكن لا تفعل المعصية ثم تقول: قدَّر الله وما شاء فعل.

إذن لا يُحتج بالقضاء والقدر في المعاصي، وإنما يُحتج بالقضاء والقدر بعد حدوث القدر، لذلك كان النبي –صلى الله عليه وسلم– إذا اشتكت له نساءه من تقاعس خادمه أنس بن مالك أنهم أمروه بأمر ما ولم يفعله، أو طلبوا منه طلبًا لم يُلبه أو كان يكسل أحيانًا، فيقول النبي –صلى الله عليه وسلم– لو قُدِّر لكان، ليس معنى ذلك ألا يوجد تأديب وتهذيب إنما كان بيقول قدر الله، فكان يحتج هنا بالقدر، فهن قد أمرنه وهو ربما طرأ له طارئ فيقول النبي: لو قدر لكان.

الفائدة السادسة: الأعمال بالخواتيم؛ فانشغل بعيبك ولا تنشغل بعيوب الناس

الأعمال بالخواتيم، همة العُبَّاد معقودةٌ على الخواتيم، اللهم أحسن خاتمتنا في الأمور كلها وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة، والنبي –صلى الله عليه وسلم– في حديث سهل بن سعد قال: "الأعمال بالخواتيم" صحيح البخاري، فهنا يتضح لنا ذلك المعنى وهو أصل في الأدب والتربية، نأخذ منه فائدة تربوية؛ فمثلاً أنت تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، ثم تحكم على الناس من وجهة نظرك أنت، وتنظر للفاجر والفاسق نظرة سيئة، وربما قلت له كلامًا جعله يتمادى في الطيغان، أو ربما تعاملت معه بأسلوب جاف، لذلك نأخذ هذه اللفتة في التعامل مع الناس، ضع أمامك هذه الجملة: أنا من ذنوبي على يقين ومن ذنوب الناس على شك ولا أدري بما يُختم لنا.

فعندما ترى صاحب معصية لابد أن يتحرك قلبك نحوه، أنت لا تدري بِمَ سيختم الله له؛ فلا تنظر له على أنه فاجر وكافر فما أدراك بذلك؟! ألَمْ تروا الفنان فلان والمغني فلان كيف كانوا وكيف أصبحوا، آهٍ والله ولِمَ لا؟!.

قبل ثلاث سنوات في مارس ٢٠٠٩ قدمنا حلقة على قناة الناس مع زوج حلا شيحة، ونحن في الاستوديو بعض المصورين وبعض العاملين به كانوا متعجبين جدًا وطول الحلقة يضربون كفًا بكف بعدما رأوها لأنها دخلت بالنقاب؛ نقاب كامل لا يُرى منها شيء حتى عينيها، ثم دخلت الكنترول وتكلمت من داخله، فالشباب لم يصدقوا الحالة التي رأوها بها، وانظروا الآن إلى فضل شاكر ولحيته والتزامه ما شاء الله لا قوة إلا بالله، الذي كانوا يعتبرونه مغني الرومانسية،كيف أصبح؟! لذلك لا تنشغل بعيوب الناس.

الأعمال بالخواتيم، لذلك كان النبي –صلي الله عليه وسلم– يكثر في دعائه و يقول: "يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك" صححه الألباني

نضع هنا فائدة إيمانية، قال ابن حجر الهيثمي في الفتح المبين في شرح الأربعين "إن خاتمة السوء –والعياذ بالله– بسبب دسيسة باطنية للعبد لايطلع عليها الناس" أي أن من يُختم له بخاتمة سيئة –ربنا يعافينا ويسترنا– بداخله باطنٌ سيىء ويظهر ذلك في خلواته، فإذا كنت ممن إذا جلس بينه وبين نفسه هجم على المعاصي فاحذر خاتمة السوء، مثلاً كلّما قعد الشاب بمفرده شاهد أفلامًا سيئة أو كلَّم فتاة في منتصف الليل، أو مارس العادة السيئة وهكذا كلما انفرد بنفسه عصى الله وتجرأ عليه، احذر خاتمة السوء فإنها عاقبة ذنوب الخلوات والسرّ.

الفائدة السابعة: الإعجاز العلمي في الحديث

من فوائد هذا الحديث أن فيه إعجازٌ علميٌ ظاهرٌ؛ لأن هذه الأطوار التي وردت في الحديث لم تُكتشف إلا بظهور علم التشريح وعلم الأجنة، أخبرني أخٌ في فرنسا أن يخبر غير المسلمين بهذا الحديث ويقرأ عليهم آيات خلق الإنسان، فيتعجبون لأن علم الأجنة لم يظهر إلا في عصر متأخر فيخبرهم أن القرآن أخبر بذلك منذ ١٤٣٣ عامًا فيسلمون في الحال؛ فاستخدموا ذلك في دعوة الناس.

فوائد أخرى للحديث:

أخذنا بعض فوائد للحديث، هنا سأُجمل فوائد أخرى بجانب ماذكرناه فهذا الحديث مهم جدًا:

١– الحث على الثبات على الدين، وعليك أن تُكثر من الدعاء بالثبات على الدين، الحديث يقول ذلك لكي يختم لك بخاتمة السعادة أكثر من "يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك".

٢– استعذ بالله من سوء الخاتمة.

٣– الأعمال سبب دخول الناس الجنة أو النار، كلٌ بحسب عمله.

٤– مَن عَلِم كيف خُلِق؟ عليه أن يشكر من أوجده، يقول الله: "يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ * كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ" الإنفطار ٦:٨.

٥– الشقاء والسعادة لا يعلمهما إلا الله.

٦– جواز القَسَم على الخبر الصادق تأكيدًا لشيء في نفس السامع، نأخذ ذلك من قول النبي: "فَوَالذي لا إله غَيْرُهُ إنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ" صحيح مسلم فأحيانًا تحلف لتؤكد شيئًا في نفس المستمع ووقتها لا يُعد

ذلك مخالفة أو أنك حلّاف.

٧- اطمئن على رزقك واقنع مع الأخذ بالأسباب؛ اسع لرزقك وافعل ما عليك واطمئن لأنه مكتوب، مثل قولنا: اجرِ يا ابن آدم جري الوحوش-مع العلم أن هذا ليس بحديث- فهذه المقولة شاهد على كلامنا، لأن رزقك وأجلك مكتوب فلا تخشَ إنسانًا فلن يموت إنسان حتى يستكمل عمره، فتجد الشجاع دائمًا يقول: هي ميتة واحدة، الأعمال بيد الله فهو يعلم أن أجله مكتوب.

٨- الأعمال سيئها وحسنها علاماتٌ وليست بموجبات، كلام رائع؛ أي أن سيىء الأعمال أو خيرها علامات ولكن لا توجب نار أو جنة، فمثلاً إذا رأيت الرجل يديم الصلاة في المسجد تظن فيه أنه مؤمن، أو رأيته دائمًا أبدًا يُعمل اللهُ شأنَه في الطاعة أي أن الله يشغله في طاعته صدقات وكذا وكذا فهذه علامة خير لكن لا توجب له الجنة، والعكس إذا رأيت الرجل دائمًا على سوء فهي علامة سوء لكن لا توجب النار، لأنه ربما تغير حال قلبه وهداه الله ودخل الجنة والعس صحيح.

٩- رفق الله بالأم؛ من الفوائد اللطيفة أيضًا، قال بعض أهل العلم: في هذه الأطوار أثر من آثار اسم الله الرفيق، فالله يرفق بالأم حتى لا يزداد عليها شقاء الحمل يقول تعالى: "حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ" لقمان: ١٤، فلم يجعل تكوينه جملة واحدة وإنما شيئًا فشيئًا، ففي بداية الحمل تكون المرأة خائفة من الإسقاط فتأخذ مثبات حتى شهرين أو ثلاثة، ثم تبدأ تطمئن وتتمالك صحتها على حسب حالها، فهنا يكون التدرج في الخلق حتى لا يكون من شأنه إضعاف شديد لصحتها.

١٠- البعث حق؛ فالله الذي خلق الإنسان من نطفة، فعلقة، فمضغة، قادرٌ على أن يحييه -سبحانه وتعالى- فهو قادر على أن يحيي الموتى.

هذا ما تيسر حول هذا الحديث لأهميته أطلنا فيه شيئاً ما، يقول تعالى: "وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ" المؤمنون: ٦٠، لابد تعمل الخير وتسأل الله القبول لا تدرى لكن نسأل الله جل وعلا أن نموت على التوحيد وأن نكون من أهل الجنة.

هل الدعاء يرد القضاء المكتوب؟

لا؛ لأن المكتوب في اللوح المحفوظ لا يتبدل ولا يتغير، لكن قد ينزل من القضاء ما يدفعه الدعاء، وفي النهاية من يغلب الدعاء أم القضاء؟ لو غلب الدعاء يكون هذا هو المكتوب في اللوح المحفوظ، ولو غلب القضاء يكون هذا هو المقدر للعبد والمكتوب في اللوح المحفوظ، فندعوا الله لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- أمرنا بذلك.

هل هناك فرق بين القضاء والقدر؟

بعض أهل العلم قال: هما سيان.. القضاء هو القدر، والقدر هو القضاء، والبعض قال هناك فرق؛ المكتوب في اللوح المحفوظ هو القدر الذي ينزل هو القضاء، فإن وافق القضاء القدر فيكونان شيئًا واحدًا، أما القضاء إن قضى

على العبد شيء قد يرفعه الدعاء، والبعض قال العكس أي أن الذي ينزل هو القدر والذي يُرفع هو القضاء، خلاصة المسألة أن المكتوب في اللوح المحفوظ لا يتبدل ولا يتغير، وهناك أشياء ينزل بها الملك وقد يُحرم العبد هذا الرزق بذنب يصيبه، مثلاً الملك ينزل الآن بمال لشخص فيستعجل الرجل ويفعل ذنبًا فيُرفع الرزق، إذن ما الذي كتب في اللوح المحفوظ؟ الذي كتب أنه لن يأخذ المال.

لماذا أستعيذ بالله من سوء الخاتمة مادامت قد كتبت في اللوح المحفوظ؟

يكتب في اللوح المحفوظ أن خاتمتي شقيٌّ أو سعيدٌ، لكني أستعيذ منها على حد علمي أنا وليس على هذا الاعتبار الموجود في اللوح المحفوظ، أضرب لكم مثلاً؛ فالله استأثر الله بعلمه لا تستطيع عقول البشر أن تصل إليه، فأنا الآن مّد بصري لا يصل إلا إلى ذلك الحائط لا أستطيع تجاوزه، هذه أقصى إمكانات رؤيتي، والآن يعجزون على أن يصلوا إلى بعض الأشياء البشرية، وهكذا علم البشر محدود بنفس محدودات محسوساتهم، لأن علم البشر يتكون من مدخلات حواسهم فعلمهم على قدر ما يسمعونه ويرونه ويلمسونه ويتذوقونه بحواسهم الخمسة، فهذه أقصى طاقات البشر وقدراتهم، فأنا الآن بيني وبينكم مسافة قصيرة ولا أسمعكم فقدرتنا تعجز عن أشياء كثيرة، وهذه حدودنا، فعلمنا ضئيل جدًا، لا يقارن أصلاً بعلم الله، عندما قال الخضر لموسى –عليه السلام– : "والله ما علمي وما علمك في جنب علم الله إلا كما أخذ هذا الطير بمنقاره من البحر"، هذا علمنا بالنسبة لعلم الله سبحانه.

هل يجوز الدعاء برد القضاء؟

يجوز أن تدعو الله برد القضاء فمثلاً تقول: اللهم مُنَّ عليَّ بكذا وكذا واصرف عني كذا وكذا، ولكن لا يجوز أن تقول: اللهم لا أسألك رد القضاء ولكني اسألك اللطف فيه.

تم بحمد الله

شاهدوا الدرس للنشر على النت في قسم تفريغ الدروس في منتديات الطريق إلى الله تفضلوا هنا:

http://forums.way2allah.com/forumdisplay.php?f=36